الثالث اعدوا على حسابهِ الفطير والنُقل والفواكه . ثم خاطبوهُ في اتعاب النادبات وثمن «تركيب» من الرخام لقبر المرحوم. وبعد الاربعين تقدم رفيق الى مرعي بك بشابين وسيمين عليهما آثار نعمة قديمة واخبرهُ انهما حفيدا « الخربوطلي باشا حاكم ولاية آضنه » وان لهما قضية شرعية بشأن اوقاف المرحوم جدهما التي تقدر بآلاف الافدنة وانهما جاءا يخطبان نفيدة ونعيمة شقيقتي وجيده هانم ، ثم افضى اليهِ بان هذا النسب يقربهُ من الامراء ويربطهُ بالبيوت القديمة ويجعل كلمتهُ نافذة في الحكومة ، وقد يصيب نصيباً من تلك الاوقاف المتسعة. فرحب مرعي بك بهما وقبل الخطوبة واسرع رفيق في عقد الزيجتين ووحّد حملتي الزفاف ولم يدفع الفتيان النبيلان صداقاً ولم يبذلا نفقة لان قضايا الاوقاف لم يفصل فيها ، ولم يرَ رفيق بك بأساً في اقناع مرعي باقراضهما قرضاً حسناً وانتظار الميسرة . فاتفق الشيخ مرعي على الفرح كما انفق على المأتم. ولما زُفّت الشقيقتان الى الشقيقين عاش الجميع عيشة البذخ والدلال في كنف سعادة البك زوج الشقيقة الكبرى

(التتمة في الجزء التالي) محمد لطفي جمعه المحامي

رباعيات فرحات

عن قريب يظهر ديوان الرباعيات لالياس فرحات . وقد خدمني الحظ بأن قرأتهُ فاحببت نشر شيء منهُ لقراء المقتطف مع ذكر الداعي الى نظم بعض الرباعيات

الياس فرحات حرّ الطبع مثل ابن بلدتهِ المرحوم الدكتور شميّل وهو مثلهُ ايضاً في اكثر فلسفتهِ او بالحريّ في نظرهِ الى الحياة

وحريّة طبعهِ كثيراً ما تجيء ممتزجة بشيء من النكتة اللطيفة ، من ذلك انهُ تعرّف الى آنستين بارعتين في الجمال ممتازتين في الادب وكان يومئذٍ عازباً فلم يدرِ الى ايتهما يميل بل كان يشعر انهُ يميل الى الاثنتين ، فنظم البيتين الآتيين وانشدهما في حضرة الآنستين :

لو كنتما مثلي وكان الامر يُلقى في يَدي
لجمعت بينكما على دينِ النبيّ محمّدِ

واما رباعياتهُ فكلها جدية انتقد فيها ما رآهُ وسمعهُ وتألم منهُ . ولأكثرها اسباب او حوادث شخصية حملتهُ على نظمها. من هذه الاسباب انهُ نظر الى اختلاف المذاهب والنزاع

الدائم الذي ينجم عنهُ حتى في المهجر و بنوع خاص حيث كان يجوّل فنظم الرباعية الآتية حاضًا المهاجرين والمتخلفين على التآخي والبيت الاخير منها زبدة فلسفة الشاعل :

يا جارُ جارَ عليَّ الظالمونَ كما ... جاروا عليك ولم ترحل ولم تثُرِ
نخشى الغريب ونخشى بعضنا فاذا ... حلَّ البلاء شكونا الضيمَ للقمرِ
فيمَ التقاطع والاوطانُ تجمعنا ... قم نغسل القلب مما فيهِ من وَضَرِ
ما دمتَ محترمًا حقي فانت أخي ... آمنتَ بالله او آمنتَ بالحجرِ

يعتقد فرحات ان اساطير السلف وصلت الينا مشوّهة وان اصلها كلها حكمة وفلسفة من الطبقة العالية ، ولكن الجمهور يستبدل التفسير الحرفيَّ من التأويل الخياليَّ او الرمزيَّ فيقذف بها من حالق الحكمة الى حضيض الخرافة . وكلما ظهر معلم انتقد على شعبهِ اعتقادهُ معيداً تعليم من سلفهُ باسلوب خيالي او رمزيّ يفهمهُ ابناء يومهِ . ولكن الشعب ذاتهُ يعود بعد موت المعلم الى التفسير الحرفيَّ فيحول تعليمهُ الفلسفي الى خرافة يضحك منها من يخلفهم . فقال

نتلو اساطير اسلاف الورى فنرى ... جهلاً غريبًا وخلطًا في الدياناتِ
والجهلُ والخلطُ ما زالا كما عرفا ... منذ الوجود سوى بعض اختلافاتِ
هذه عقول بني حوّاء ما برحت ... عمياء تسبحُ في بحر الخرافاتِ
أنا نضحكنا من الماضي ولا عجبٌ ... ان كان حاضرنا اضحوكة الآتي

مشاهدات الشاعر في بيئتهِ التجارية كثيرة . فوصف تهمّم الكبار المالي ذاكرًا ان لا حرام عندهم ولا حلال ؟ وان طرق السلب الشرعية كثيرة وانهم يبتلعون الجمَلَ ولا يغصّون و يأكلون الدود ولا يأنفون فقال

المرؤ شرٌّ سباع البرّ قاطبةً ... خبثًا وشرٌّ تنانين البحار معا
قولوا عن الذئب ما شئتم فسامحكم ... بمثل غدر ذئاب الناس ما سمعا
الذئب يترك شيئًا من فريستهِ ... للجائعين من الذئبان ان شبعا
والمرؤ وهو يداوي البطن من بشمٍ ... يسعى ليسلب طاوي البطن ما جمعا

متى كثر المال كثر الرياء والخداع . فترى الرياء في الزيارات وفي الظهور في المحلات العمومية . وقد بلغ حبّ الظهور والخداع الاجتماعي بالناس انهم صاروا لا يهتمون الاّ بالازياء وما شاكلها من المظاهر الخارجية ولا يحترمون الاّ من كان امهر منهم في النفاق والتظاهر . وصار بعضهم يكتفي من السعادة والوئام العائليّ بالبروز للناس بمظهر السعادة مع انهم بالعكس . والشاعر عرف بالمشاهدة الشخصية عائلات كثيرات

حياتها الداخلية تمسّ وجهها ومظهرها الخارجي رغدٌ ونعيم ، فوجّه هذه الابيات الى كل صبية تبحث عن مستقبلها ناصحاً لها اللطف والحبّ ولو في كوخ حقارٍ

يا ربة الدار ما هذي الحياة سوى روايةٍ انشأتها فكرة الباري
فتالي للورى فصل الحمامة في حبٍّ ولطفٍ ولو في كوخ حقارٍ
كم في « الاوادم » من زوجين ما برزا الاّ بسيّارةٍ تزهو كسيّارِ
فان تضمها جدرانٌ قصرهما قاما بتمثيل فصل المرّ والقارِ

عاشر الشاعر قوماً في اميركا فلقوا الكون بمفاخرتهم بجدودهم ، فكلما دقّ « الكوز بالجرّة » قالوا « نحن ابناء المردة » . يحمل البرق نبأ اختراع في اوربا فيقولون « ولكن نحن ابناء المردة » . او يقدم جماعة من الاميركيين على مشروع كبير مفيد فيخرون قائلين « ولكن نحن ابناء المردة » . يحلّ الغريب بلادهم ويذيق ابناء جنسهم الذلّ الوانا فيفتخرون بانهم ابناء المردة . وتصوّر انهم اذا ساقهم حاكمهم الى اشغال السخرة عانوا عانوا والسياط تلهب ظهورهم ، يترنمون قائلين نحن ابناء المردة ، فقال فيهم

قالوا الحفيد بشكل الجدّ قلت لهم الشكل يجمع بين المرّ والغيرِ
قلّبت في كل قطرٍ يفتخرون به عيني فما وقعت الاّ على هررِ
مات الجدود وما زالت مآثرهم تحيى وعشنا بلا ذكرٍ ولا اثرِ
تحت السياط تغنّي فاخرين بما يُعزى لاسلافنا من سالف الظفرِ

حاول الشاعر التجارة مثل كثيرين غيره من الادباء فكانت حرية افكاره وصراحته عقبةً كؤوداً في سبيل كسبه المال . وكان يرى جماعة لا تهذيب نفس لهم ولا تثقيف عقل ولا ذكاء فطرة فيهم ، يفتحون ابواب التجارة « بشولم شولم » غشهم لا يستثنى واحداً منهم . ورأى عدداً من الادباء قد كفّنوا ادبهم وخلقهم بالبضاعة ودفنوهما في التجارة فأثروا . وتذكّر نصيحة عليّ بن ابي طالب لمن يصحب التاجر ، فقال :

يا شاعر العرب احذر ان يقال غداً كل التجارة أعمى شاعرَ العربِ
سر في سبيل العلى الشوّاك منفرداً وليذهب الناس افواجاً مع الذهبِ
ان التجارة للاخلاق مقبرةٌ أما النسائجُ فالاكفان للادبِ
إن ضاق عيشك كن ملّاح أحذيةٍ لا تاجراً يقتني بالغشّ والكذبِ

في الرباعية الآتية نظر الشاعر الى ابعد من حياة الافراد ، نظر الى حياة الشعوب . كان يرى بعينه المبامرة والتجار واصحاب الصناعات يكرمون من لم غاية من اكرامه حتى

اذا قضوا منهُ وطرهم لم يجازلوا في اليوم التالي الى ردّ تحيتهِ - كان يرى رفقاءهُ الجوّالين معتمدي المحلات التجارية يتردّدون الى تجار الداخلية لكي يحصلوا منهم على طلب بضاعة واذا اتفق بعد زمن ان رأوا احد هؤلاء التجار في سانبولو اور يو دي جانيرو حادوا الى الرصيف الآخر لكي لا يراهم الاَّ اذا كان لم يأرب. كان المثل المشهور «مأرب لا حفاوة» يمثّل امام عينيهِ كلّ يوم مراراً بأدوار مختلفة فكان يتألم آلاماً نفسية شديدة . إلاَّ ان آلامهُ صارت لا تطاق لما التفت الى الشعوب الشرقية ورأى بعض الاجانب ينهشونها، والبعض الآخر يعطفون عليها ، فكان يتألم من العاطف اكثر من الناهش لان غاية ذاك ابعاد هذا لكي يستأنس بهِ الشرقيّ فيزدردهُ دفعةً واحدةً. ومراد الشاعر من الكبش في البيت الاخير الشعوب الشرقية اي انهُ لو عرف الشرقيُّ غاية الغربيّ من التودّد اليهِ لرفض منهُ كل معروف واحسان تجاريًّا كان او سياسيًّا او مدرسيًّا او دينيًّا . قال

لا يخدعنك محتاج اليك اذا ... في ما يسرّك من اموالهِ بذلا
ان ابن آدم لا يعطيك نجدتهُ ... الاَّ ليأخذ منك الثور والجملا
جهل البريء طباع المجرمين وما ... شبّوا عليهِ عليهِ يجلب الاجلا
لو يعرف الكبش ان القائمين على ... تحميتهِ يضمرون الشرّ ما اكلا

استبدت انكلترا في اثناء الحرب بالدول الصغيرة ، بتوقيفها المراكب وتفتيشها. وكان الناس يشفقون على الدول الصغيرة مثل دانمارك وهولاندة كما حصل اعتداء على حرّيتها. ولكن الشاعر تذكّر ان هولانده لما كانت قوية كانت تستبدّ ايضاً وحرّ ببالهِ هجومها ظلماً وعدواناً على البرازيل واحتلالها قسماً منها وقيام الشعب البرازيليّ قومة رجل واحد لمحاربة الهولانديين وطردهم من البلاد ، فقال

معنى العدالة روحٌ طار مبتعداً ... واللفظ جسمٌ طواه الناس في الكتبِ
يشكو الضعيفُ القويَّ المستبدَّ وان ... يقوَ استبدَّ وما في الامر من عجبِ
فالخير في البعض بالتهذيب مكتسبٌ ... والشرُّ في الكلّ طبعٌ غير مكتسبِ
لم يخلق الله أنياباً محدّدةً ... للمرء فاعتاض عنها أنصلَ القضبِ

***

هذه امثلة من ديوان الرباعيات النفيس الذي تترقب صدورهُ ، ورباعياتهُ كلها تستبق الامتياز

البرازيل كور يتيبا علي عطّار